أضلاع معزولة
Isolated ribs

ثلاثة من شباب من بلدة السؤوط الريفية(1) يتجولون في أحد أزقة البلدة، يتضاحكون ويتمازحون طوال الطريق، وضحكاتهم يسمعها كل المارين بهم، ولا ينظرون لهم، أو حتى يراقبونهم، لأنهم في مفهوم بلدة السؤوط رجالا، وعليهم تحمل تبعات أخطاءهم، وأي عمل يقومون به، وفي وسط ذلك الزقاق الكبير، حاوية تستوعب أوساخ سكان ذلك الزقاق.

مر هؤلاء الشباب الثلاثة، الذي تشع في وجوههم الحيوية والقوة بجانب الحاوية، وانتبهوا للوحة منكسة على جانبها الأيسر، واللوحة واضحة ظاهره للعيان، أقترب فريد وهو أحد الشبان الثلاثة من الحاوية، ونظر إلى اللوحة عن قرب، ثم لمسها بيده فاعتدلت، وتساوت أطوالها، بحيث بان منها الجزء العلوي، ووجد أنها محكمة الإغلاق، بواسطة حبل رقيق، تم تمريره على كمال أجزاء اللوحة، بالعرض والطول.

أخذ يكلم زملاءه.

فريد: عجبا يا ترى ماذا يوجد داخل تلك اللوحة، ولما صار مصيرها الحاوية، وهل هي صالحة أم تالفة،

نظر إليه إحسان وقال.

---

(1) بلدة السؤوط الريفية The rural town of Al-Su`t: اسم بلدة وهمية.

ولماذا يتخلص منها أصحابها، ولما هي مغلقة بهذه الطريقة.

إحسان: أتوقع أن تكون اللوحة تالفة، وإلا لما كانت في الحاوية، وصعب جدا أن يفرط فيها أحد، لأن اللوحات غالية جدا، خاصة وإن كانت مرسومة باليد.

فقال كمال.

كمال: لما لا نقطع الشك باليقين، ونفتح ما عليها، وننظر ماذا بداخلها، وما هو مرسوم فيها، ونحكم في النهاية عليها، وعما إذا كانت اللوحة صالحة أم تالفة، بدلا من التأويلات والتفسيرات التي تطول، دون الوصول لحقيقة تلك اللوحة، أو نتركها مكانها، ونواصل طريقنا لبيت إحسان، نستكمل عنده فروضنا المدرسية، وننهي البحث الذي طلبه منا الأستاذ خليل.

نظر كل منهم للآخر، ووجدوا أن كلام كمال هو عين الصواب، فمد كل منهم يده على اللوحة، واستخرجوها من داخل الحاوية، فأمسكها كمال بيده اليسرى، واليد اليمنى تنزع ما عليها، حتى بانت أصبحت واضحة للجميع، ولكن ما شوش عليهم رؤيتها بشكل أوضح، هي الأربطة التي تملأ فريم الصورة بالكامل، بالعرض والطول، وكذلك الضوء الموجود في الزقاق كان ضعيف جدا، والوقت قارب على أفول الشمس وغيابها في الأفق، وكل هذا حال دون رؤيتها بالشكل الذي يتيقنون منها جيدا.

إحسان: لنأخذها معنا إلى البيت، ونرى عما إذا كانت صالحة أم لا، ونعرف من رسمها، وهل تساوي شيئا لو بعناها.

فريد: رأي حسن.

حملها كمال تحت أبطه، وأمسك بها جيدا بيده، وانصرفوا عن موقع الحاوية، في طريقهم لبيت إحسان.

كل تلك الأحداث تحت رصد ومتابعة من أحد أهالي الزقاق، وهو ينظر من نافذته، التي تقع مباشرة على الحاوية، وجميع المشاهد التي مرت بها اللوحة لحظة بلحظة، لاحظها ورصدها جيدا، وخاصة عندما حملت اللوحة تحت إبط كمال، وراح بها بعيدا عن الحاوية، هنا أطمأن من يقف عند النافذة، أن تلك اللوحة غادرت الموقع دون عودة، فابتسم ابتسامة عريضة شقت شدقيه، والفرح يملأ قلبه، وبان ذلك على قسمات وجهه، فأغلق الستارة التي كان يمسكها بيد واحدة، ونصف وجهه يراقب الحاوية، والنصف الآخر يختبئ خلف الستارة لكيلا يرى.

مشوا الثلاثة باللوحة، حتى وصلوا بيت إحسان، ودخلوا الغرفة التي كانوا يجتمعون ويدرسون عادة فيها، فأنزل إحسان اللوحة على الطاولة، وأخرج المقص من درجها، وقص الحبال المطوقة بالصورة. أسند كمال الصورة بعد ذلك على الكرسي، لكي يروا زملاءه ما اللوحة وما تحتويه.

القوا الثلاثة عليها نظرة متمعنة، ووجدوا أنها لوحة جدارية، ويتضح من المسمار الذي يعتلي وسطها من الخلف، والحبل الذي يتدلى منها، وبالتمحيص فيها وجد أنها تحمل توقيع من رسمها، بحروف متقطعة، وكأنها طلسم سحري، قرأه عليهم كمال بصوت مرتفع، والطلسم عبارة عن ثلاثة حروف هجائية، وهي: (أ، ف، ك) راح إحسان على الفور لجهاز الحاسوب، وجرى البحث عن اسم الرسام، وحروفه المتقطعة، التي لم يجد بعد البحث له أي معلومات، واستعرض في محرك البحث ايضا اللوحات المثبتة في المستعرض، ولكنه لم يعثر على أي لوحة شبيهة، أو مقاربة لتلك اللوحة، والتي رسمت بألوان زيتية باهته، وبالتدقيق في الصورة مرة أخرى من قبل الثلاثة، لم يتبينون الشكل المرسوم أو يعرفون ما هو، وعما إذا كان جماد أو حيوان أو انسان، وإنما عبارة عن الوان متداخلة بعضها في بعض.

كامل: إن تلك اللوحة الجدارية، رسمت من قبل فنان مغمور، لم يتضح له أي معلومات عند البحث عن اسمه المتقطع في محرك البحث، وطبعا ما دمنا لم نصل لاسمه لا يمكن معرفة جنسيته، وأين مكان رسمها، وهل هي من بلدنا هذا، أو مستورة من بلاد أخرى، حتى نتحقق منها.

فريد: يا أخواني إن هذه اللوحة ملعونة، ومنذ أن نظرت إليها، وقد دبت في جسمي قشعريرة، وأحس أن فيها شيطان، وليست لوحة عادية، وإذا سمحتم

نعيدها لمكانها، الذي أخذناه منها، ونبعدها عنا، إن هذه اللوحة أشعر أن بها شيء غير طبيعي، وأني لست على ما يرام من وجودها معنا.

إحسان: من المؤكد أنكم لم تلاحظوا توقيع الرسام على اللوحة، إنها ثلاثة حروف.

قاطعه فريد بقوله.

فريد: ماذا تقصد؟

إحسان: إن الحروف التي وقع الرسام بها على اللوحة ثلاثة حروف، وهي الكاف وهذا أول حرف من حروف اسم كمال، والفاء وهو أول حرف من اسم فريد، والألف وهو أول حرف من اسمي.

فريد: لقد شطح عقلك بعيد جدا.

كمال: قد تكون هذه صدفة، وأنت ربطت توقيع الرسام بأول حروف من اسمنا.

إحسان: هذه ليست صدفة، لماذا لم ننتبه لتوقيع الرسام، عندما فتحنا ما على اللوحة حتى نتأكد من أن تلك الحروف عليها من قبل، أو دونت بعد فتحنا لها؟

كمال: لقد كان الضوء ضعيف في الزقاق، ولم نتبين الاسم، وما تحتويه اللوحة من تفاصيل، ا, ما هو مرسوم فيها.

إحسان: أرى أن نعيد اللوحة لمكانها، ويكفينا ما أثرناه حولها، لأنه بصراحة داخلني الخوف منها، خاصة وأنها في بيتي.

حاول فريد وكمال، اقناع إحسان إنها مجرد رسمه في إطار، وليس فيها أي شيء يمكن أن يخاف منه، وتطوع كمال لتعليقها، على جدار في صدر الغرفة التي هم فيها، وبعد أن ثبتها كمال على الجدار، في مكان مناسب بمساعدة فريد، لم يظهر عليها أي شكل مخيف يمكن أن يفسر.

بعد ذلك اجتهدوا في تلك الليلة، لإنهاء نصف البحث الذي يعملون عليه من ثلاثة شهور، وبالخطأ رفع إحسان رأسه على اللوحة، ووجد صورته عليها، وهو عابس الوجه، حيث كان أول الليل في مشادة كلامية مع كمال، حول إضافة صور إضافية، في ملحق البحث، وإحسان يرفض ذلك قطعيا، وبانت عليه المعارضة، وظهرت مشاعره وما كان يحس فيه، من توتر وأعصاب مضطربة في اللوحة، بتقاسيم وجه غاضبة، ووضوح التوتر على وجهه، تحرك إحسان صوب اللوحة، ووقف أمامها يشاهد شكله، وهو مشدود إليها، وفي رأسه ألف تفسير لما رآه، وتيقن أن ما جعلها في الحاوية، أن ظهر منها ما يفوق التصديق، ويتجاوز حدود العقل، فلفت نظر زملاءه اللذين وقفوا أمام الصورة المرسومة من تلقاء نفسها، حائرين في تفسير ما يشاهدونه، واقترح فريد أن يقوم برد فعل عاطفي، حيث سيجري مكالمة من

جواله مع والدته، ويرى تأثير ذلك على اللوحة، فاتصل بوالدته.

فريد: ألوه، أمي الغالية، يؤسفني أني تأخرت في الحضور للبيت، هل لك حاجة أجلبها معي؟

وبعد أن أنهى فريد المكالمة، عم الصمت المكان، وعيون الثلاثة على اللوحة، التي أخذت تشكل صورة فريد، وتلم أجزاء وجهه، وتلونه بلون بشرته، وفي لحظات رسمت من تلقاء نفسها، صورة فريد وهو سعيد، واستنتج أن اللوحة تقرأ المشاعر الإيجابية، والعاطفة القوية، وتتأثر بها وتجسدها على اللوحة، وعلموا أن للوحة استجابة فورية، لحالة الشخص النفسية الذي يكون بالقرب منها، ولم تقف تلك التجربة فقط على إحسان أو فريد، بل كمال أحب أيضا أن يظهر شيء جديد، لم يتوقعه اصدقاءه أن يفعله، وذلك لمعرفة تأثير اللوحة عليهم، وهل لها نوايا شيطانية، أم تقتصر على إخراج الحالة النفسية ومدى تأثيرها للعيان.

طلب فريد من إحسان في أذنه، أن يأتيه بسكين، تحت استغراب من هذا الطلب، وأتاه إحسان بما طلبه منه، وبعد قليل افتعل فريد موضوع، أظهر فيه لصاحبيه الغضب، مع التلويح بالسكين، فأحدث هذا الأمر في اللوحة أثرا كبير، أن توشحت اللوحة بالسواد، وتحركت من مكانها، حتى ارتجفت على الجدار، وصارت تضرب نفسها على الجدار عدة ضربات،

وخرجت من اللوحة أصوات، عبارة عن صوت صرير، يشبه الأقلام، وهي ترسم على اللوحة، دون أن ترى، أمام استغراب ودهشة الثلاثة، فانتظروا حتى يرون النتيجة، وما تخرج بعد هذا الكم الهائل من الرعب، الذي تركت بصمته تلك اللوحة على سطحها، وفي قلوب من حولها.

هدأت اللوحة بعد أن انهت الرسمة، ظهر فريد في الصورة، وهو يمسك بنصل السكين، ويطعن كمال، والدماء على مساحة اللوحة بالكامل، وما أن شاهد فريد هذا المنظر، رمى بالسكين من يده، وأسرع إحسان في التقاطها، ليذهب بها إلى المطبخ، ويأمن شرها، أما فريد فقد هرول وتوقف باب الغرفة، فألقى نظرة خاطفة على كمال وإحسان، وواصل طريقه للباب الرئيسي، وخرج من بيت إحسان وهو يركض، وصل بيته وأغلق الباب خلفه، وهو في حالة غير ذعر، وحالة نفسية غير مستقرة، متزعزع من الخوف، والرعب يملأ قلبه، ويتوقع أمور سيئة فيما لو بقي في منزل إحسان، مع تلك اللوحة الملعونة.

راح إحسان للوحة، أمسكها بيده جيدا، وانزلها برفق، ووضعها تحت أبطه، وخرج بها من بيته، وتوجه بها برفقة كمال، إلى المكان الذي أخذوها منه.

سار الاثنان مع بعضهما، واللوحة ثالثهما، وعندما اقتربا من الزقاق الذي أخذوها منه، تفرع الزقاق إلى ثلاثة طرق، واحتاروا في أيهما الزقاق الصحيح،

فوقفا أمام الأزقة الثلاثة، وكل منهم يفكر ويتوقع، ولم يصلا لشيء، حول معرفة الزقاق الصحيح من بينهم.

اقترح كمال أن تفكك خشب اللوحة، وتوزع إلى ثلاث قطع، وتوزع على الأزقة الثلاثة، وقد أباح بهذا الرأي في أذن إحسان، خشية أن تكون هناك ردة فعل من اللوحة يصبحون ضحية لها.

وضع إحسان اللوحة على الأرض، وبسرعة ضرب بيده أحد زوايا إطارها، وانفتح أحد أضلاعها، وأعاد ضرب اللوحة مرة أخرى بيده، فصارت أضلاع اللوحة أربعة قطع على الأرض، واللوحة القطعة الخامسة.

أحتار إحسان كيف يوزع قطعها على الأزقة الثلاث، وهي أربعة قطع واللوحة الخامسة، فحل موضوع القطعة الخامسة وهي اللوحة أن يمسكها بيده، وقد توقع أن الأزقة سوف تندمج مع بعضها البعض، لأنها في الحقيقة زقاق واحد فقط، وهم أعرف بحارتهم التي يعيشون فيها منذ نعومة أظفارهم.

أخذ إحسان أول ضلع من الإطار وذهب به إلى حاوية الزقاق الأول، وتزامن حركة إحسان ودخوله مع دخول كمال الزقاق الثاني، وانضما بعد ذلك لبعضهما حيث ذهبا لحاوية الزقا الثالث، وتوفا عنده فقال إحسان.

إحسان: ليت فريد لم يهرب، لكان ساعدنا في هذه الورطة، هل يضمن أي منا الحياة، لو دخل بالقطعة الثالثة، وتوحدت الأزقة في زقاق واحد، وهذا يعني أن يكون مفقود بين أبعاد لا ترى، أو وهم أو خيال لن ينجو منه من يدخله، وأما إذا كان الزقاق الصحيح أم لا.

كمال: لا عليك أنا من سيقوم بهذه المهمة، فأدعو لي يا أخي بالنجاة.

التقط كمال الضلع الثالث ودخل مسرعا ورماه في الحاوية، وخرج يركض من الزقاق، ولم يحصل شيء. فقال إحسان.

إحسان: ما دام أنه لم يحصل شيء، ففي القطعة الرابعة يكمن الخطر.

كمال: أعطني القطعة الرابعة، وسوف أضعها في الحاوية، مثلما فعلت في الثالثة.

لم يوافق إحسان على طلب كمال ورافقه، ووضعا اللوحة والقطعة الرابعة في الحاوية وخرجا من الزقاق مسرعين.

وواصلا طريقهما لبيت إحسان، وهما يحدثان بعضهما.

إحسان: ماذا لو وصلنا ووجدنا اللوحة معلقة في مكانها!

كمال: وماذا لو عدنا لتلك الأزقة، ولم يعد زقاقنا السابق الذي عهدناه منذ طفولتنا!

إحسان: هل تتوقع أن الأزقة الثلاثة توحدت وعاد زقاقنا السابق، أو أن تلك الطرق توهمنا وجودها وهي في الغالب طري واحد.

كمال: أنا متأكد أننا كنا في عالم غير عالمنا، لأن عالمنا فيه طريق واحد، وهو ما أخذنا منه تلك اللوحة الملعونة، أما ثلاثة طرق وجميعها متشابهة فهو ليس بعالمنا.

إحسان: ما رأيك لو اتصلت بأهلي وسألتهم عن الصورة، عما إذا كانت معلة في غرفتي أم لا؟

كمال: وهل تضمن أن اللوحة لا تقرأ رد فعل من يقف أمامها، وتكون ردة اللوحة سيئة على أهل بيتك.

إحسان: إذن ماذا نفعل؟

كمال: نعود للحاوية مرة أخرى ونتأكد من الأزقة واللوحة.

قررا العودة للزقاق، وسارا في عجلة حتى وصلا لنفس الزقاق المقصود' وفجأة وقفا مشدوهين في رأس الزقاق، أن رأوا أنفسهم الثلاثة وهم يحاولون استخراج تلك اللوحة من جديد، ليعود المشهد الأول أمام أعينهما، وتجسيد كل حركة منهما، وكأنه تم تصويرهم بكاميرا فيديو، أظهرت المشاهد بكامل

تفاصيلها وبدقة عالية، فخاف كمال وأمسك بيد إحسان وقال له.

كمال: هل يعقل أننا أجساد خاوية، وسراب نجسد صور خيالية، وأرواح غير حقيقية داخل هذه اللوحة؟

إحسان: ماذا تقول لقد أخفتني، إن ما تقوله يا إحسان غير معقول، فلدينا حياتنا التي نعيشها، وأهلنا الذين نعيش معهم، هيا لنترك هذا المكان، ونعود لأهلنا وكأن شيء لم يكن، داخل اللوحة، يعني أننا غير حقيقين، وحياتنا تلك التي نعيشها ليست واقعية، ودراستنا وعلاقتنا واهلنا كل ذلك وهم، هداك الله يا كمال، والله لقد زرعت في قلبي الرعب، وتفسيراتك جميعها مخيفة، وأدخلت علي الشك أننا نعيش حياة واهية، وأكذوبة صادمه، لاحول ولا قوة إلا بالله.

وفي الطريق تبادلا الاثنان فيما بينهما النظرات وافترقا، وكل منهما ذهب لبيته، ولم يتصلوا الثلاثة بعضهما ببعض، وانقطعت علاقتهم منذ ذلك الوقت، وانتقل كل واحد لمنزل ومدينة خلاف التي يعيش فيها، ولا يعلم كل واحد منهم عن وضع ومصير الآخر.

عبدالوهاب علي الصبخه